**المحاضرة السابعة: علاقة النقد بعلم الاجتماع**

جرى الحديث دائما عن ريادة الحضارة اليونانية و عودة كل المعارف إلى جذور التفكير عند أفلاطون وأرسطو، و قد ردد ذلك النقاد في عصر النهضة و قالوا بسيطرة التفكير الأرسطي على الساحة النقدية ردحا من الزمن، و الأمر يتعلق هذه المرة بالاتجاه الاجتماعي و المقولة الأولى المتعلقة بماهية الأدب، و رغم أن بدايات التفكير عند الإنسان تمحورت حول الفلسفة و مناقشة إشكالية الوجود، و كذا السعي وراء إعطاء مفهوم و تصور للعالم المثالي و الواقعي، بقيت وسيطا قائما شمل كل الموجودات و الظواهر بما في ذلك الأدب بوصفه ظاهرة إبداعية تستدعي البحث عنها.

 فالقول حول المحاكاة في الحضارة اليونانية عند أفلاطون تعلق في بداية الأمر بتلك الصورة الباهتة و المشوهة التي يظهر من خلالها العالم المثالي في الواقع، و الأمر يخص كل ما فيه من موجودات و السعي هنا دائم لتأكيد الثبات و الكمال على العالم المثالي، و في مقابل القول بالنقص و التغير الذي ينسب للعالم الواقعي بما هو عالم مشوه، و هذه الفكرة تم تطويرها في ما بعد ليقارب الأمر مسألة الفن و هو محور الواقع الذي ينتمي إليه الأدب، فدارت الأفكار الأولية حول تطوير الأدب للواقع أو المحيط و هذا ما فصلت فيه المحاكاة عند أرسطو، و على اختلاف و تفرد فكرة المحاكاة عند أرسطو بما تزعمه، إلا أن الأمر متعلق بالانطلاق من هذا الواقع سعيا لرسم ملامح هذا الفن أو الأدب، و يكون الفاعل هذا الفنان أو المبدع.

 فمنذ البدايات الأولى ارتبطت مادة الأدب بالواقع، لأن الطبيعة كما يقال أول كتاب يقرؤه الإنسان فيأخذ عنه العلم و الخبرة و التجربة، و ظل الوجود باختلاف عصوره ملهم الإنسان و مرجعه في الإبداع و التميز، فأفق التفكير عند الإنسان تحده حدود العالم حوله و يضيق هذا التصور إذا غابت عنه الطبيعة بما تطرحه من جديد، والانتقال في التصور عند أرسطو هو الانطلاق من فكرة النقص أو التغير الذي هو سمة الواقع و خاصيته، فهذا التعدد و الاختلاف الذي يطرحه الوجود، و هذه الحدود الدقيقة التي تفصل بين الأشياء فتؤدي إلى اختلافها هي منهل الإبداع عند الإنسان، و في محاولته للتعبير عن هذا الواقع هو يحاكي الواقع و يحاوره ليرسم له صورة من وجهة نظره هو، فيكتب عن هذا الواقع و يحاول أن يرمم النقص الموجود في هذا الواقع بوساطة اللغة، فتكون الصورة المبدعة أكثر اكتمالا من الواقع ذاته.

 وليس مطلقا هو تعلق الفن بالواقع عن طريق إتمام النقص الموجود فيه، و لكن الواقع بدوره يؤثر في الأدب إذ يمنحه رؤى و تصورات بغية الإبداع، فيكون الأصل في العلاقة التي تجمع بين الأدب و الواقع جدلية، هو يتأثر بالواقع و يعود الواقع ليؤثر فيه، و تلك هي العلاقة الأزلية التي جعلت الأدباء و النقاد يفسرون الأعمال الأدبية انطلاقا من واقعها الذي يكون سبب الكتابة، فرغم أن المنهج الاجتماعي حديث النشأة إلا أن القول بمبادئه قديمة قدم ارتباط الفن/ الأدب بالواقع قبل أن توضع مبادئه الواضحة في العصر الحديث و عده منهجا نقديا سياقيا، يكون تفسير الأدب فيه انطلاقا من عوامل خارجية، و هنا يطرح التقارب بين المنهج الاجتماعي و المنهج التاريخي، ذلك أن الأمر في كليهما يتعلق بالبيئة المحيطة بالأدب، و منه القول بالتيار العلمي الذي ينتمي إليه كلاهما.

 فالتفسير و التقييم وفق المنهج الاجتماعي يستعير بدوره آليات العلم التجريبي من استدلال و استقراء في سبيل دراسة العمل الأدبي، و لكن ما يفصل المنهج الأول عن الثاني هو سبيل تتبع الظاهرة، فالمنهج التاريخي هو الأخذ بالسبيل التطوري أو التعاقبي في تفسير الأدب انطلاقا من ربطه بمحيطه و واقعه، فيكون المنهج التعاقبي وسيلته في الدراسة، بينما الأمر بالنسبة للمنهج الاجتماعي فمتعلق بالدراسة الوصفية الآنية التي يكون الواقع الحالي و الآني فيها السبيل الأنجع في الدراسة، و سلطة التصور الفني للأدب دلت عليه المناهج النقدية، إذ لا تبرح إلا و تعود للاعتقاد بهذه العلاقة و استحالة الفصل بين الأدب و الواقع و هذا ما صورته نظريات عديدة قبلية وبعدية من نظرية المحاكاة عند أفلاطون و أرسطو و بعدها نظرية الانعكاس و الاعتقاد عند الماركسية و الجدلية المادية، وصولا إلى ظهور المنهج الاجتماعي و مجهودات مدام دي ستايل Madame de Styleو هيبوليت تين و جورج لوكاتشGeorge Lukats و أخيرا تعلق الأمر بالنظرية البنيوية التي ما لبثت أن وجدت مخرجا للأدب يوجزه الاعتقاد بوجود مرجع داخلي يتكئ عليه النص الأدبي، و ظهور ما يسمى بالنقد الواقعي الذي كان صورة متطورة للمناهج الاجتماعية إذ ترجع الأدب إلى الواقع الخارجي.

 و عليه، يمكن القول بخصوص المنهج الاجتماعي أنه التصور الذي يرجع الفن إلى الواقع و يفسره انطلاقا منه، و عن أصل هذا النقد، فيتعدد القول به بين القديم و الحديث، فنظرية المحاكاة تتصدر النظريات في إحالتها إلى هذه الطريقة في النظر إلى الأدب، و تعود أيضا إلى الماركسية و المادية الجدلية، و أيضا إلى التصور العلمي التجريبي الجديد الذي يستثمر مبادئ علم الاجتماع بما هو علم قائم بذاته له مبادئه و قواعده و أسسه ومبرراته، و يعزى الفضل في ظهور المنهج الاجتماعي إلى نفس الرواد الذين استغلوا نتائج البحوث العلمية في الدراسة النقدية التاريخية وصولا إلى البنيوية التكوينية عند لوسيان غولدمان.

 وفي العالم العربي تأثر النقاد كثيرا بما جاء به هؤلاء في مجال النقد و برز منهم كل من سلامة و موسى و محمد مندور .... و في العالم الغربي اشتهر كل من بليخانوف Plekhanov و لوكاتش و أرنست فيشر Ernst Ficher...

**نصوص و تطبيقات:**

 يرى سلامة موسى" أن التملق آفة الأدب، و هو يشوه الواقعية السليمة التي ينبغي أن يصورها تصويرا حيا، وهو هنا يعرض بطه حسين و العقاد اللذين سايرا الملك، فقد عاب سلامة موسى على طه حسين وصفه للملك فاروق بصاحب مصر، و بأن سلوكه الشخصي يعتبر قدوة للمواطنين، كما عاب على العقاد أنه وصف الملك فاروق بالفيلسوف، في حين هؤلاء الحكام و بخاصة الملك على الأدب و الفن، و يفسر سلامة موسى اهتمام طه حسين و العقاد بالأدب القديم، أن هذا الأدب ملوكي، و أن المجتمع العربي نفسه كان أميريا إقطاعيا، و لهذا جاء الأدب منافقا لم يهتم بقضايا المجتمع، و يرد طه حسين على هذه الآراء فيتهم موسى بالشعوبية، و يرى أن الأدب العربي لن يضيره سخط عليه، و لكنه لا ينكر التهمة، فيقرر أن الملوك و الأثرياء اتخذوا وسيلة لإنتاج الأدب في بعض الظروف، و أن الأدب يلائم البيئة التي ينشأ فيها على كل حال، كما يرى: الأدب للحياة والإنسانية و المجتمع، و أنه ليس نكتة بديعة، أو بيتا رائعا و إنما هو ارتقاء و تطور لتعميم الخير و الشرف والإخاء و الحب...."[[1]](#footnote-1).

\*- انطلاقا من النص ما هي حدود الأدب الملوكي، و الأدب الاجتماعي عند سلامة موسى.

1. -أحمد عبد الحميد مهدي: المنهج الاجتماعي و رواده في النقد الأدبي الحديث، ص 2. [↑](#footnote-ref-1)